الفصل الثاني

حقيقة الصراع بين الكنيسة والعلم!!

تسلطت الكنيسة على مجريات الأحداث تسلّطاً لا مثيل له ، حتى أن(البابا) وصل إلى مرحلة الطاعة المطلقة ، والدليل على ذلك ما أعلنه البابا(أنسنت الثالث) : إن الخادم ـ البابا ـ الذي أقامه الله على شعبه إنما هو نائب المسيح ، وخليفة بطرس ، فهو قائم بين الله ، وبين عباده ، دون الرب وفوق البشر ، وهو يحكم الجميع ، ولكن لا يحكمه أحد!!![1] .

وفي عام(١٠٧٦م) صدر أمر من البابا بحرمان إمبراطور إنجلترا (هنري الرابع) من حكم البلاد ، فلم يعد لذا الملك قيمة ولا وزن ، لهذا اضطر للسفر إلى مقر البابا (بروما) ووقف مستأذناً على باب قلعة(كانوسا) في شمال إيطاليا بالقرب من البابا(بارما) حيث كان البابا نازلاً وهو في طريقه إلى(ألمانيا) والتمس المثول بين يديه ثلاثة أيام متوالية ، وهو عاري الرأس ، حافي الأقدام ، لابساً لباساً من الوبر ، وأخيراً أذن البابا له بالمثول ، وغفر له ذنبه ، ورفع عنه النقمة!![2] .

من جهة أخرى ، بسطت الكنيسة نفوذها على أمور المال ، ففرضت الضرائب ، وحددت لنفسها عُشر الأموال ، ووصل الحال على حد

---

(١) معالم تاريخ العصور الوسطى ، محمد رفعت ومحمد حسونة : ١٤٨ـ١٤٩ .
(٢) نفسه : ١٤٠ـ١٤١ .

قول(شار سنيوبوش) : كان الكهنة أعلى طبقات ، لهم وحدهم من الأملاك والوسيعة ما يقرب من ربع أرض المملكة ـ فرنسا ـ فضلاً عما كانوا يضربونه من المال على الحاصلات مما يسمونه العُشر ، ومقداره مئة وخمسة وعشرون مليوناً في السنة!!![1] .

فما هو موقف الكنيسة من الأمور العلمية ؟!

في العصور الوسطى كان مستوى التعليم في أوروبة متخلفاً إلى حد عجيب شمل التخلف كل المستويات كسوء التغذية ، والتخلف في وسائل النقل ، وانعدام الكشوفات العلمية ، وتدهور الوضع الصحي والدوائي ، وقد خضعت المدارس لسيطرة الكنيسة ، حتى الجامعات لم تستطع الخروج عن آراء الكنيسة .

أما النساء فلم يكن لهن مدارس خاصة بهن ، ولم تتعلم الراهبات إلا تلاوة صلواتهن وتعاطي صناعة التطريز وغيرها من أعمال الأديرة[2] .

والذي زاد الأمر سوءاً تدخل الكنيسة في تفسير بعض الأمور العلمية ، وبالتالي تقديس ذلك الأمر على أساس أنه وحي إلهي!!

فذاك أحد الرهبان واسمه(قوزماس إنديكو بليوستيس) يقول عن الأرض والسماء كلاماً يرفضه العقل والدين ، لكن الكنيسة تبنت آراءه واعتبرتها وحياً من الإله ، ومما قاله في هذا الصدد :

إن الأرض عبارة عن معين منبسط تحيط به أربعة بحار ، ويبلغ معين الأرض أربعمئة يوم سفراً طولاً ، ومئتي يوم عرضاً!!

وماذا عن السماء ؟ يجيب : حدود هذه البحار الأربعة الخارجية تقوم

---

(١) تاريخ التمدن الحديث : ٦٥ .

(٢) دائرة المعارف لبطرس البستاني : ٦/ ١٢٦ .

على جدران عظيمة القدر ، هائلة الحجم ، تحوي كل ذلك البناء الكبير ، وتحمل من فوقها تلك القبة السماوية ، وقد ثبتت أطرافها إلى أعلى الجدران بمادة فيها صفة الالتصاق!!

وماذا عن ظاهرة غروب الشمس ؟ يجيب : إن عند طرف الأرض الشمالي يقع جبل عظيم ، خلفه يكون مقر الشمس أثناء الليل! ثم يفلسف آراءه هذه بقدسية الدين فيقول : إنه ليس موسى والأنبياء وحدهم ، بل الملائكة والحواريون أيضاً متفقون على أن ما في مذهبه حق ، وأن الله في اليوم الآخر سوف ينزل غضبه على كل من يُسلّم به أو يتشكك فيه!!

إذاً : ماذا عن احمرار الشمس عند الغروب ؟ أجاب(دانتي) : إن ذلك بسبب جهنم! حيث إنها تقع عرض المحيط الأطلنطي ، وعلى مسافة غير معروفة من شاطىء أوروبة!![1] .

. . . وبالطبع هذه الآراء للكنيسة تخالف الحقائق العلمية تماماً .

وتدخلت الكنيسة لتفرض آراءها في أمور تختص بالبيولوجيا : فتبنّت فكرة(بطرس لومبارد) الذي أوردها في كتابه(الجمل) وهي : إنما أصبحت الحيوانات مضرة مؤذية ، لتزعج الإنسان ، وتعاقبه على رذائله ، ولتحضه على الفضيلة وتكملها في نفسه ، لقد خلقت العجماوات غير مؤذية ، فلما أن وقعت المعصية ، انقلبت مضرة أبلغ الضرر!!

وتبنت الكنيسة آراء(بارثو لوميو) في كتابه خصائص الأشياء ، منها : إن التمساح إذا عثر على الإنسان على حافة المياه فإنه يقتله ، ثم يبكي عليه ، ثم يأكله!!

---

(١) للتوسع يراجع : بين العلم والدين ، أندروديكسون وايت ، ترجمة إسماعيل مظهر ، ط١٩٣٠م دار العصور بمصر .

والتنين هو أعظم الأفاعي ، فهو عندما يطير في الجو يتحرك الهواء ، وعندما يدخل في الماء فإن البحر يهيج ويطغى!!

وتبنت فكرة نشأة بعض الحيوانات من آراء(الأنسيكلو بيذي الكبير) ، ومنها : إن النحل إنما يحدث من لحم الثور المنحل ، والخنافس من لحم الحصان ، والجراد من البغال ، والعقارب من السراطين!![1] .

. . . وبالطبع فهذه الآراء للكنسية تخالف الحقائق العلمية تماماً . . .

وفي كل المجالات حاولت الكنيسة أن تتبنى أفكاراً ، لكن في واقع الأمر كانت تخالف العلم ، لذلك فكل من أوتي نصيباً من أنوار العلم ، ووصل إلى وقائع تخالف ما تبنّته الكنيسة ، كان جزاؤه التكفير والإلحاد ، لأنه خرج عن قدسية آراء الكنيسة ، وبالتالي خرج عن آراء المسيح ، لذلك كله قامت الكنيسة بحملة تطهيرية وحشية ، وكانت محاكم التفتيش ما بين عام ١٤٨١م وعام ١٤٩٩م ، والتي يقول عنها الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى : حكمت محكمة التفتيش على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا ، وعلى ستة آلاف وثمانمئة وستين بالشنق ، فشنقوا ، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة ، فنفذت!![2] .

أجل! خالف (غاليليو) آراء الكنيسة فقال : إن الأرض تدور حول الشمس ، فاتهمته الكنيسة بالكفر والإلحاد ، وسجن وعذب عذاباً شديداً ، فعاد عن رأيه وأعلن أمام البابا (أربان الثامن) قائلاً : أنا غاليليو ، وفي السبعين من عمري ، سجين جاث على ركبتي ، وبحضور

---

(١) المصدر السابق : وفي أماكن متفرقة أيضاً ، خاصة/ ٢٦٠ـ٢٩٥ .

(٢) الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية : ٣٦ـ٣٧ .

فخامتك ، وأمام الكتاب المقدس ، الذي ألمسه الآن بيدي أعلن أني لا أشايع ، بل ألعن وأحتقر خطأ القول وهرطقة الاعتقاد بأن الأرض تدور!![1] .

وهكذا حدث مع (جيور دانو برونو) الذي تحدث عن بعض الحقائق العلمية التي تخالف رأي الكنيسة ، فكانت عقوبته السجن لمدة ستة أعوام في سجون محاكم التفتيش في روما ثم أُحرق حياً ، وذريت بقاياه الترابية مع الرياح!!

وهذا ما حدث مع (نيوتن) و (كوبرينكوس) وغيرهم الكثير ، بحيث يشهد ذلك كله على حقيقة الصراع القائم بين الكنيسة والعلم .

***

لكن هذا الصراع بين الكنيسة وبين العلم والعلماء كان له نتائج ، أهمها :

١ـ ظهور حركات الإصلاح :

والتي كانت نتيجة التعسف الذي مارسته الكنيسة تجاه المتنورين والعلماء ، وكانت البدايات تعود إلى القرن السادس عشر ، حيث نادى بعض المصلحين إلى فكرة إصلاح الكنيسة ، ومن أبرز المصلحين آنئذ (يوحنارخلن) و (أرزم) و (تومس مور) ، حيث ركزوا على فكرة العودة إلى الكتاب المقدس بعيداً عن تفسيرات وشروحات رجالات الدين .

لكن هذه الدعوة السلمية للإصلاح لم يكن لها تأثير يُذكر ، فنشأت دعوة الإصلاح لكن بالقوة ، وظهر من رجالات هذه الدعوة :

---

(١) بين العلم والدين ـ مصدر سابق ـ : ٧٩ـ٨٠ .

مارثن لوثر : الذي لم تعجبه فكرة (صكوك الغفران) التي ابتدعها رجالات الكنيسة ، حيث ثمن الغفران من خطيئة الزنى = ١٥٠ دوقة ، وثمن الغفران لمن قتل ابنتين = ٨٠٠ دوقة!!

فردَّ على صكوك الغفران ، وراح يتحدث أمام المثقفين عن جرائم رجالات الكنيسة و . . . ، فأصدروا قراراً يحرمونه فيه من الحقوق الدينية والمدنية والقانونية ، فكان رد (لوثر) على ذلك بإحراق قرار الحرمان!

ونادى بوجوب العودة الفعلية إلى الكتاب المقدس ، وأنكر الرهبنة ، وأبطل مسألة وجود الصور والتماثيل في الكنائس والسجود لها ، وهاجم بيع صكوك الغفران ، وهاجم حق البابا في أن يفسر الكتاب المقدس . . .

وبالفعل لاقت دعوته رواجاً بين الأوساط ، لأنها كانت دعوة صادقة تريد الخلاص من ظلم رجالات الكنيسة وتخلفهم ووقوفهم ضد كل أمور العلم .

ومثله نادى (الرخ زونجلي ت ١٥٣١م) و (جون كالفن) (ت : ١٥٦٤م) ، وكانت نتيجة تلك الحركات انقسام العالم المسيحي إلى فريقين :

١ـ البروتستانت : أي المحتجون ، وهم الذين أيدوا حركة الإصلاح والخروج على الكنيسة .

٢ـ الكاثوليك وعلى رأسهم البابا : وهم الموالون للكنيسة .

لكن ـ وللأسف ـ لم تكن حركة المحتجين ـ البروتستانت ـ أحسن حالاً من الكاثوليك في الأمر الذي يتعلق بالعلوم ، حيث وقفوا عند حرفية ما جاء في الكتاب المقدس ، وعذبوا كل من يخالف التعاليم ، إلى درجة أن (كالفن) أصدر قرار حرق (سرفيتوس) لأنه نادى بنبذ فكرة التثليث ، واللجوء إلى فكرة التوحيد!!

وهكذا استخفوا بمسألة العقل والعلم ، إلى درجة أن (لوثر) قال : إن العقل هو أكبر عدو للدين ! ![1] .

٢ـ فصل الدين عن الدولة :

وذلك نتيجة كثرة الشكاوي ضد الكنيسة ، وضد محاكم التفتيش ، وضد الظلم والقسوة والتعذيب ، إضافة إلى ما يعيشه رجالات الدين من ترفٍ واستغراق في اللذائذ والشهوات .

لذلك بدأ الناس يعلنون نقدهم للكنيسة ، فصدر كتاب (مقبرة التعصب) للفيلسوف الفرنسي (فولتير : ت ١٧٧٨م) والذي صدَّره بالقول : إن من يعتنق دينه من غير تفكيرـ شأن السواد الأعظم من الناس ـ كالثور الذي يستسلم للغير ويحمله راضياً ! !

ونادى بتقليص دور الكنيسة : كل ما هو خاص بالزواج ينبغي أن يرجع فيه إلى السلطة المدنية ، وليس على القسيس إلا أن يبارك الزوجين ! !

والذي زاد الطين بلة ، ظهور فلاسفة المادية أمثال : براتراندرسل وهيجل وإنجلز وكارل ماركس ، والذين أنكروا الغيبيات والإيمان والأديان ، وآمنوا بالعلم وحده .

ومما قاله (براتراندرسل) : إن العلم الذي يشكل المصدر الوحيد لمعرفتنا ، لا يمكن أن يفسح مجالاً للاعتقاد في وجود الله ، أو في خلود النفس ، بل إنه يعتبرها نظرية بالغة البطلان والاستحالة ! !

وهكذا بدا الصراع بين الكنيسة والعلم واضحاً وجلياً ، وكانت الضربة القوية مع ظهور فلاسفة الثورة الفرنسية (فولتير ، روسو) حيث نشروا

---

(١) للتوسع يراجع : قصة الحضارة ـ مصدر سابق ـ : ٢٤/ ٥٦ـ١٠٠ .

أفكاراً تناهض الكنيسة ، ودعوا إلى الحرية والعدل والمساواة ، وصدرت القرارات التي ألغت العشور الكنسية وصادرت أموالها ، وبدأت الأمور تخرج من يد الكنيسة ، وأصدرت الحكومة الفرنسية في عام (١٩٠٥م) قانون (فصل الدين عن الدولة) .

فالدين أمر خاص بالفرد ، وانتهى دور الكنيسة لينزوي في مهمة الوعظ فقط . . ! !(١) .

* * *

(١) للتوسع : تاريخ أوربة في العصر الحديث ، هـ .أ . فشر ، ترجمة أحمد هاشم ، تاريخ التمدن الحديث ـ مصدر سابق ـ ، سقوط العلمانية لأنور الجندي ، وغيرهم .